حكايتي مع التعليم

حاتم مطاوع

لم تكن البداية مخططاً لها، ولم يخطر أبداً في بالي أن أصبح مدرساً يوماً ما، وحرصت أن أسد المنافذ المؤدية إلى تلك المهنة، لكن الظروف أجبرتني على ذلك، حتى الواقع فرض نفسه عليَّ مع عوامل أخرى دعمت وشجعت على أن أنتسب إلى كلية العلوم في جامعة بيرزيت؛ تخصص أحياء تحديداً. ومع هذا وذاك بقي أملي أن لا أكون في مهنة التعليم؛ فاخترت فرع الأحياء العلمي، وليس التربوي، حتى أجد عملاً خارج نطاق التعليم.

مع الأسابيع اللاحقة للتخرج، شرعت أنا وصديقي بالبحث عن عمل في إحدى الوزارات والشركات، لكن الحظ لم يساعدنا، فانتقلنا للعمل داخل الخط الأخضر. ومع بداية الانتفاضة وإغلاق سوق العمل، لم يكن أمامنا سوى الالتحاق بوزارة التربية، كمعلم، وبسرعة مع تقديم طلب التوظيف جاء الرد بالتعيين في مدرسة القرية، وهنا بدأت الحكاية.

دخلت المدرسة ومعي كتاب التعيين لأجد معلمين وطلاباً أعرفهم، هي المدرسة ذاتها التي تخرجت منها والمعلمين أنفسهم الذين درّسوني، أصبحوا الآن زملائي. مدرسة كباقي المدارس يحدها من جميع الجهات سور عالٍ، لا ترى وراءه شيئاً، وسياج فوق السور يكاد يحجب عنا ضوء الشمس وهواء الطبيعة. أحتار في تشبيهها. أحياناً عند ضجري أتذكر بها مخيمات اللاجئين ازدحاماً وكآبة. مدرسة ملأى بالطلاب صغاراً وكباراً من الصف الأول وحتى الثاني عشر. أعداد كبيرة في بقعة صغيرة. وفي فترة الاستراحة معركة لا تتوقف على شبابيك المقصف وعلى المشارب وفي الملعب أو ما يسمى تجاوزاً كذلك.

مشاهد العنف بادية للعيان، طلاب لا يتقنون إلا ألعاباً عنيفة بالركل أو الضرب. طلاب كبار يركلون آخرين صغاراً لاصطدامهم بهم أثناء اللعب. أجلس قبالتهم وأنظر لأجد وكأنني أمام ساحة لا تتوقف فيها الحركة في الاستراحة، ولا تتوقف فيها الضوضاء طيلة اليوم. وما أن تبدأ الاستراحة حتى تبدأ الإصابات بالتوافد على غرفة المعلمين طلباً للإسعاف، أو لنقلهم إلى العيادة إن لزم الأمر.

لم تكن المهنة كما توقعت، فكانت مجرد عمل لا أكثر، حتى أنني اعتبرتها قتلاً للطموح، ويخطر ببالي أنني في المكان الخطأ، مع أني أستحق أكثر من ذلك "هكذا كنت أنظر لنفسي". كنت أشعر بأن المعلم يحكم على نفسه بالتجميد من أول يوم تطأ به قدماه المدرسة معلماً. تتراجع طموحاته وتتقزم آماله وتتغير اهتماماته. كنت أتعجب من المعلمين يتجادلون ويتخاصمون حول أمور صغيرة، ووجدتهم لما عاشرتهم أنهم بعكس الصورة التي رسمناها لهم ونحن طلاب.

لكن ومع هذه النظرة التي احتفظ بها لنفسي لا أراني إلا معلماً مجيداً. أكتسب خبرة يوماً بعد يوم، لا أهمل في واجبي وقد تكون شهادة الآخرين من طلاب أولاً وزملاء وأولياء أمور ثانياً خير شهادة على الإجادة التي أتمتع بها. قد تكون البراعة في التعليم والإجادة والإتقان في الأساليب التربوية هي ما يعطي المعلم صفة المجيد. هنا استطيع أن أذكر أنه من المهم أن يضع المعلم نفسه مكان الطالب، ويراعي الفروق الفردية بين الطلاب، فلا يظن أن ما يتقنه يستطيع أن يتقنه ويتعلمه الطلاب بسهولة، بل يجب أن ينشئ جسراً للتواصل بينه وبين الطالب ليوصل الفكرة أو المعلومة. حرصت أن أتلمس مواضع الضعف لدى الطلبة لأجد لها حلاً، ففي تدريس العلوم تدخل العديد من المواضيع مثل الرياضيات، والفيزياء، واللغات. فلا أجد حرجاً أن أطرح أسلوباً خاصاً بي في محاولة لتجاوز الضعف يختلف عن أسلوب الكتاب المقرر، وهذا كان مجرباً، وبخاصة لطلاب الصف العاشر في الفيزياء والكيمياء، بحيث لاقى تقبلاً عند الطلاب وحقق نسبة أعلى من الاستيعاب لديهم.

يجدر بالمعلم أن يلجأ إلى ربط المواضيع المقررة مع مواقع الحياة، وأن يبتعد عن التعقيد، وهذا ما أفعله في إيجاد أبسط الطرق وأقصرها

لإيصال الفكرة، وتساعدني في ذلك الوسائل التعليمية من البيئة أو المختبر. حاولت ربط الدرس مع الواقع والحياة وأتقبل طروحات الطلاب وأفكارهم.

لا أقلل من دور التحضير المسبق للدرس، وأركز على أهمية زيادة الثقافة العامة، وبخاصة من البرامج التربوية في التلفزيون، وأتابع الجديد في العلم. فذلك أراه مهماً لي كمعلم أحاول أن أرتقي بالمهنة. وقد لا يعني التحضير دائماً التدوين التقليدي المعروف، ولكن التحضير الذي أعنيه هو تحضير شكل الأسلوب وخطوات الدرس وطريقة النقاش والوسائل المساعدة والأدوات المخبرية للأنشطة والتجارب، وبخاصة في مادة العلوم العامة.

استفدت كثيراً مما وفره المجتمع المحلي عبر تبرعه بإنشاء مختبر للعلوم في المدرسة، ما أتاح فرصة نقل الطلاب من جو الصف التقليدي إلى جو بيئة تعليمية جديدة في المختبر. لذا أحرص وزملائي على استخدام غرفة المختبر كغرفة تدريس أحياناً كثيرة.

انطلاقاً من اعتقادي الجازم بما توفره الوسيلة التعليمية والنشاط العملي في المختبر من مجال أوسع للفهم وترسيخ المعلومة بصورة حسية للطلاب، أحرص دائماً على استعمال الأجهزة والوسائل ما أمكن، وأحاول إشراك أكبر عدد ممكن من الطلاب في تنفيذ الأنشطة، مع حرصي دائماً على النظام والهدوء وسلامة الطلبة داخل المختبر أو غرفة الصف.

ننتقل إلى مجال آخر في المهنة، وهو العلاقة مع الإدارة والزملاء والطلاب. فقد كان وما زال لدي نظريتي الخاصة في التعامل نابعة من فكري وشخصيتي وذاتي. أسلوبي يميل إلى الشدة والغلظة أحياناً كثيرة، وبخاصة مع الطلاب والإدارة. بالتأكيد أكسبني ذلك راحة في عملي وتعاملي مع الإدارة واحتراماً شديداً لدى الطلاب وانتظاماً وهدوءاً داخل صفوفي وحصصي، وأشير إلى ما قاله أحد المشرفين لي عن طلاب الحادي عشر "أتعجب من كم الهدوء والضبط لديك، فهؤلاء صف بالتحديد عندهم فوضى كبيرة في معظم المدارس". أصبحت لدي قدرة كبيرة على الضبط وحفظ النظام. حتى أن المدير أصبح يشير إلى أسلوبي في التعامل كنموذج يستحق الثناء أمام المعلمين الجدد. وما أدراك ما أحوالهم؟! لا أقصد بأسلوب الشدة جانب العنف والضرب الجسدي، ولكن أركز على جانب قوة الشخصية، والنباهة، وحسن التصرف، وعدم التراجع.

إن شخصية المعلم والضبط والهدوء والنظام داخل غرفة الصف أهم كثيراً من علم المعلم وأساليبه، وإن تخرج بأعلى الشهادات وحصل على مؤهلات تربوية.

الضبط وحفظ النظام مهمان داخل الصف، لكن لا مانع لدي من ترك هامش بسيط من المرح، وترك الطلاب يعبرون عن آرائهم، لأقلل من شعور الملل الذي قد يتولد لدى بعض الطلبة من الضبط والربط، فيكون ذلك نوعاً من التنفيس.

أما بالنسبة للعلاقة مع الزملاء، فقد كانت طيبة لأبعد الحدود، ولا أذكر أنه حدث أي خلاف بيننا، فنحن من قرى متجاورة، وبيننا علاقات قديمة، ويسود بيننا جو من الاحترام المتبادل. بعض الزملاء يفرض عليك بشخصيته وفكره أن تكن له احتراماً، ولكن أحياناً أرى أن البعض قد تأثر بمن يعلمهم، وأن فكره انحدر نحوهم، وهؤلاء أشعر بالإشفاق عليهم. وأعتقد أحياناً أن من قال إن معلم الصبيان لا تقبل شهادته بعد عدة سنين قد تنطبق عليهم، أتمنى أن تدوم بيننا الألفة والمحبة.

ينتابني شعور بالإحباط والانكفاء أحياناً عندما أقدر الوضع المادي والاجتماعي للمتعلمين مع أقرانهم من غير المتعلمين في الدوائر الحكومية، ويأتي هذا الشعور بشيء من الكره، وأحياناً الحقد على هذه المهنة. ولكنه يتلاشى ويعود فكري إلى الواقع. أعود ثانية وأنغمس في المهنة، وتراني حاملاً كتبي ودفاتري وذاهباً إلى الصف بعد أن يقرع ذلك الجرس اللعين الذي أحس أنه سيداً علي وأنا بإمرته.

أحاول أن أحرز تقدماً في المهنة من خارجها أو من داخلها. أحاول ذلك دون كلل لعلي أرى ذلك التقدم مستقبلاً.

لا أرى لي ولزملائي أي إنجاز حقيقي أو إبداع، لا أدري هل قتلت فينا الروح أم أن وضعنا هو الذي أوصلنا إلى هذا، أم أن أفعال غيرنا أورثتنا الإحباط والانكسار، أم لأننا نزرع ولا نجد ما نحصده في موسم الحصاد؟ لا أدري، لعل كل ما أوردته يكون صحيحاً. يقول أحد زملائي كبار السن: لي سنتان وأتقاعد . . وأني أشفق عليكم من الأيام القادمة!

حاتم مطاوع
مدرسة ذكور شقبا الثانوية – رام الله

من ورشة عمل حول توظيف عباءة الخبير.